يونس

فى ظلمات ثلاث ، ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت جأر يونس رافعًا صوته ، بالدعاء

﴿ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

(الأنبياء الآية ٨٧)

* * *

دعوة المكروب ، من دعا بها الله ، فى إخلاص ، فك كُربته .

* * *

دعا يونس ربه ، حين وقع فى هذه الظلمات ، جزاءً وعقوبة وتأديبًا ، وترويضًا لنفسه ، وتطهيرًا لها من نزوة شيطانية سبقت إلى نفسه ، ولظن سرى فى وهمه ، أنه آمنٌ من حساب الله ، يوم تعجَّل على قومه ، وشدَّ عليهم فى دعوته ، مبالغة منه فى الحرص على إيمانهم وطاعتهم ، ولأنه غضب عليهم ، وغاضبهم ، ولأنه بادر بهجرهم ، والمهاجرة من بينهم ، من قبل أن يأذن الله له بالمهاجرة

﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴾

(الإسراء الآية ١١)

* * *

وأى استعجال وإعنات ، وأى إثارة واستفزاز ، أكثر ما فعل يونس بقومه ؟ يوم دعاهم إلى عبادة الله ، والتخلى عن عبادة الأصنام ، ويوم هددهم بالخراب والدمار وسوء العذاب ، إن لم يخلعوا دين الوثنية ويلبسوا فى التَّوِّ والساعة ثياب دينه .

* * *

وما هكذا تكون الدعوات ، ولا بهذا العنف تُساس الناس ، ولا بهذه السرعة السريعة ، يتخلى الإنسان عن دينه ومبدئه .

والدعوة الراسخة تقوم بالتربية والترويض والإقناع ، وببسط جناح اللين والرحمة .

* * *

وما هكذا أخذ نوح قومه ، فقد مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا ، وما آمنوا ولا اهتدوا ، بل لم يؤمن ولده بدين أبيه .

* * *

شرط الدعوة ، وواجب الداعي ، أن يتسع صدره للمعارضة ، وألا يغضب إذا نفر منه القوم ومن دينه الجديد ، وإذا حنوًا إلى ما سرى فى دمائهم ، مما ورثوه عن الأجداد .

ثم تأليف النفوس ، وتسرب الدعوة إلى القلوب ، واستمالة العواطف ، لقد فاتك كل هذا ، يأيها النبى يونس .

* * *

فقلت ، وأنذرت ، وهددت ، وتعجلت ، فنفضت يدك ، وسحبت نفسك وتخليت عن متابعة رسالتك وهجرت القوم ، وتركتهم حائرين .

* * *

لا يجتمع نجاح فى دعوة ، وفظاظة وغلظة ، ولا تتأتى استمالة قلوب لدين إذا كانت سياط العذاب ، مُصْلَتَةً فوق الرءُوس .

بل إن العُنْجُهِيَّة فى الدعوة ، سبب الانفضاض عنها ، والنفرة منها ، ومقاومتها

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾

(آل عمران الآية ١٥٩)

ترك يونس قومه حيارى ، وركب البحر ليذهب إلى بعيد ، غاضبًا منهم ، فهبت عليه الريح ، وعنُفت العاصفة ، ومالت السفينة ، وأوشك الغَرق ، وتخفف أهلها ، فرموا متاعهم فى البحر ، ثم ضربوا السهام واقترعوا ، فمن أصابته القرعة ، رمى نفسه فى البحر ليخف عن إخوانه ، وأصابته القرعة مرة ، ومرة ، ومرة .

وكان لابد أن يلقى نفسه فى البحر ، فى الخضم الهائج المائج .

وكأنه كان على ميعاد مع الحوت ، فالتقمه وابتلعه ، وضغطه بين فكيه ، وقذفه فى جوفه .

فاجتمعت عليه الظلمات الثلاث ، ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت .

فأى ضيق ،وأى كربة ، من هاتيك الظلمات الثلاث ؟

* * *

وعليك يا يونس أن تجأر بالدعاء ،وأن تفزع بالضراعة ،وأن تحسَّ خطر الهلاك ، وأن تخاف بعد أمن ،وتفيق بعد غفوة ،وأن تدرك مدى الاستخفاف بأمر القوم .

* * *

ادع ربك يا يونس ، والإنسان لا يعرف ربه إلا فى وقت الغَرَق .

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ ﴾

(الأنبياء الآية ٨٧)

والنون الحوت الكبير

﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾

(الأنبياء الآية ٨٧)

فى ملكوتك وجبروتك ورهبوتك

﴿ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء الآية ٨٧)

ظلمت نفسى ، وظلمت قومى ، وظلمت رسالتى .

فمن ظلمنى لثلاث ، أوقعنى ربى فى ظلمات ثلاث .

فيارب أدركنى بثلاث : التوبة ، والمغفرة ، والنجاة .

* * *

وكانت رحمة الله ، فاستجاب دعاه ، ونجاه ، فأهاج بطن الحوت ومَغَصَ أمعاءَه ، وضيَّق أحشاءَه ، فتلوَّى وتقبَّض ، وقذفه من جوفه ، بعيدًا على الشاطئ ، فى العراء وهو سقيم .

وشملته العناية الربانية ، فأنبت الله بجواره شجرة من يقطين ، وسواء أكان اليقطين شجر القرع أم الموز ، فإنها شجرة غطته بأوراقها وأظلته بأغصانها ، وغذّته بثمارها .

فوقته وحفظته من ثلاث :

من الطير والذباب حتى لا تنهشه وهو طريح لا حراك به .

ومن الشمس حتى لا تأخذه ضربتها .

ومن الجوع حتى لا يهلك فيموت .

* * *

قم يا يونس ، فارجع إلى قومك ، إلى هؤلاء الناس ، الذين أرسل عليهم الغمام فأظلم ديارهم ، فأسرعوا إلى الله ، خائفين وجلين ، تائبين مؤمنين .

ويا يونس ، لو رأيتهم ، وقد خرجوا إلى الخلاء ، بأنفسهم وأهليهم وماشيتهم ، وقد فصلوا

الرجال عن الزوجات ، والأطفال عن الأمهات وصغار الحيوان عن المرضعات ، وقد ارتفعت أصوات الناس بالدعاء ، وأصوات الحيوانات البكماء .

وياليتك يا يونس رأيتهم ، وهم جميعًا يعلنون التوبة والاستسلام ، وقد آمنوا بربهم ، فعفا الله عنهم ، وكشف العذاب الأليم . ومتّعهم إلى نهاية أعمارهم .

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

(يونس الآية ٩٨)

* * *

قم يا يونس ، فعُدْ إلى قومك مائة ألف أو يزيدون .

عُدْ إليهم ، فقد تابوا وآمنوا .

فكشف الله عنهم الغُمَّة ، كما كشف عنك غَمَّ الظلمات .

* * *